

بسم الله الرحمن الرحيم

اشكالية التأريخ وصناعة التاريخ عند المجتمعات الافريقية

ان الذي يتطرق الى موضوع تاريخ القاره الإفريقية يتوهم بانها لم تكن مسرحا لسيرورة تاريخيه من ناحية السلم الزمني الذي وضعه الانسان منذ ظهور الحضارات و التي ترجح بعض النظريات على ان الفترات النيوليتيك كانت حاسمه في صناعه التاريخ لدى الشعوب الإفريقية وعلى هذا الاساس ، تفرعت هذه النظريات في تحديد معنى النيوليتيك ومظاهره على غرار ما قدمته مجلدات اليونسكو سنه 1980 م تحت عنوان التاريخ العام لإفريقيا، حيث تطرقت الباحثة ماريان كورنوفان الى الصعوبات التي واجهها مختصي تاريخ افريقيا في فهم بداية تشكل ماض القارة و قد لخصت هذه النظرة في تسعه تفسيرات يمكن تقسيمها الى ثلاثة اصناف هذه الاخرى مثلت و عبرت عن المراحل التاريخية التي مرت بها القارة و هي مرتبطة اساسا بتطور المناخ و انعكاساته الوخيمة على حياة شعوب القارة اقتصاديا و حضاريا و لخصت هذه الآراء فيما يلي :

الصنف الاول رأى ان مناطق افريقيا جنوب الصحراء قد عرفت فترات النيوليتيك بدون الفخار ، عكس مناطق بلاد الرافدين و بعض مواقع شمال افريقيا المعروفة بانتشار الفخار و الزراعة كدليل على استقرار الانسان و بالتالي صناعة الحضارة بابتكار الكتابة و استمرت هذه المرحلة بدون الفخار في بعض مناطق افريقيا قد دام الى غاية عهد اكتشاف الحديد، بمعنى ان القارة بقيت على هذه الحالة مقارنة بالأمم الاخرى التي تطورت حضاريا باكتشاف موارد طاقوية اخرى على غرار الفحم :

الصنف الثاني راي تخصص بدراسة ما سمي بالنيوليتيك المصري رغم عدم وضوح معالمه ولان تاريخ مصر ارتبط اساسا بعهد الاسرات اما الفترات التي سميت بما قبل الاسرات هي عبارة عن فترات تتقارب في مميزاتها الى مظاهر النيوليتيك بحكم العثور على اثار للمعادن ونعني بها عصر حضارة "نجد او نغدا" المصرية ولهذا اعتبرها الاثريون لا معنى لها في الفضاء المصري فنجد مثلا الباحث فيركوتر يستعرض مميزات هذه الفترة دون ذكر اسمها (اي النيوليتيك) بل يعتبرها فترة خاصه بحضارات وادي النيل؛

الصنف الثالث راي خصص لفضاء شمال افريقيا وعلى راسهم ليونال بالوت الذي تصور فتره النيوليتيك هي عبارته عن فتره كثر فيها النظام الرعوي والمنتجه الى استقرار الانسان مع ظهور الزراعة، كما وصفها بفترة بوادر ظهور ما سمي بالحضارة الجبلية مع انتشار الفخار.

كما نلاحظ ان معظم الباحثين تجنبوا استعمال لفظه النيوليتيك بالنسبة للقاره الإفريقية خاصه الحيز الصحراوي رغم ذلك فالدراسات الميدانية اكدت ان الانسان الافريقي قد تأقلم مع وضعه الخاص و صنع لنفسه حضارة حسب مفهومه للطبيعة و ترك لنا اثارا اي تاريخا بغير قصد لكنه من نوع خاص و هذا الذي انتبه اليه هيجو 1980 م و ادرك اهميه هذه المرحلة الحضارية للقاره.

فمساحه صحراء الكبرى تشمل 1/4 مساحه القاره الإفريقية التي عرفت فيها فترات تذبذب و تعاقب المناخ من رطب الى جاف فكانت المرحلة الأخيرة لهذا التغير المناخي قد بدأت منذ اواخر الألفية السادسة و عرفت فيها بداية حركيه ثقافيه وحضارية نتيجة الهجرات نحو الاراضي الخصبة مما سمح بانصهار الكثير من الشعوب في مناطق نسمها الان بإفريقيا جنوب الصحراء واستقراره على حوافها وصادفت هذه الهجرات المتتالية من الشرق الى الغرب وفي بعض الاحيان من الشمال الى الجنوب ظهور ما يسمى بأولى مظاهر اشكال الكتابة في القاره الإفريقية تمثلت في الرسومات الصخرية التي تعبر بحق عن لحظة من لحظات التاريخ في عنفوانه بعيدا عن مفهوم التاريخ الذي وضعته تصورات العالم الغربي في شان مفهومه و الذي يقاس على اساس وجود الوثائق والمستندات المكتوبة التي تدل على وجود المجتمعات والشعوب مثلما صنعتها الكتابات الكلاسيكية منذ عهد المؤرخ الاغريقي هيرودوت.

من اعداد الـلـستاف حمداء و يوغرطة

المصادر الإفريقية

معيار الكتابة في صناعة "التاريخ":

ان قضية المصادر التي لها علاقة بالقارة الإفريقية على العموم وإفريقيا جنوب الصحراء بالأخص تعد معضله بالنسبة للمؤرخ الذي يحاول ان يستقرا اصولها وحضاراتها، بحكم وجود مسلمه فحواها انعدام الشواهد التاريخية بالنسبة لهذه الشعوب، خاصة عندما نقيسها بمعيار الشعوب التي دونت تاريخها وتركت لنا سجلات اعتمد عليها المؤرخين منذ الكتابات الكلاسيكية فكانت هذه السجلات مقياسا لتطورها و هو العكس الذي حدث لتاريخ افريقيا فانعدام هذه السجلات جعلها ينظر اليها كأنها شعوب متخلفة لم تدخل في مسار سياق الحضارات التي عرفتها باقي القارات.

رغم ذلك فان الكشوفات الجغرافية التي بدأت منذ نهاية القرن 16 وبداية القرن 17 التي عرفتها هذه مناطق العالم سواء في اسيا وإفريقيا جعلت أوروبا تكتشف وجهها اخر للإنسانية عندما تعرفت على حضارات عتيقه وقديمة واولها الحضارة المصرية التي افصححت للعالم تاريخا مغايرا بعيدا عن المفهوم الأيديولوجي لعلم التاريخ سواء فلسفيا وفكريا ودينيا خاصة لما اكتشف شامبوليون رمزيه الكتابات الهيروغليفية المصرية التي اظهرت ماض لأمم قد اندثرت منذ ازل بعيد لكنها صنعت التاريخ هي الأخرى.

لهذا اعتبرت مصر في تلك الظروف هي الوحيدة التي دخلت التاريخ عكس الشعوب الافريقية وان باقي المناطق لم تشهد فيها اكتشاف بمثل هذا النوع من الكتابة الا في مناطق التي سماها مؤرخي العهد الكلاسيكي والحديث بالمناطق البربرية اي شمال افريقيا فقد عرفت هي الاخرى نمطا من الكتابة في المناطق المحاذية للصحراء سميت بالتفيناغ رغم حداثة زمانها.

اهم المصادر المساعدة في كتابة تاريخ افريقيا

من خلال مسلمه التي ذكرت بان افريقيا ليس لها تاريخ لانعدام المصادر المكتوبة، نقول انه هناك جانب اخر من المصادر تسمح لنا معرفة ماضيها عندما نعتد على التركة الأثرية التي تزخر بها هذه القارة والاعتماد عليها يتوقف حسب توفر ادوات المقاربة المتمثلة في العلوم الوضعية التي ابتكرها العالم الغربي منذ عهد الاستنارة كعلم الاثار وعلم الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وفقه اللغة، كل هذه العلوم تعتبر علوم مساعده في كتابه تاريخ افريقيا.

فعلم ما قبل التاريخ اصبح ضروريا في معرفه اصول و تطور الإنسانية في افريقيا بحكم انه اتضح منذ عدة سنوات ان اقدم السلالات ظهرت بأثيوبيا و تلتها اقدم حضارات فجر التاريخ، بشكل نجدها موزعة بانتظام دون اختلالات زمنية عبر ارجاء القاره و بتباينها وتنوع مظاهرها، فما زالت العديد من القبائل الإفريقية تمارس انماطا معيشيه شبيهه بتلك التي أسسها الانسان الافريقي منذ الفترات السحيقة على غرار قبائل البشمان التي حافظت على طقوسها الدينية وعلى تنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية وكذلك على فسيفساء لغاتها بحيث كانت هذه العناصر الثقافية بمثابة الإرث الذي اعتمدت عليه في تأسيس شخصيتها ومقوماتها و توقف أيضا على العنصر الشفوي من اجل إضفاء الاستمرارية لهذا التراث، ان كل هذه العوامل قد تساعد المؤرخ للقاره في الاعتماد عليها حتى يستنبط منها تلك العناصر التي تسمح له و من خلالها تشكيل صورته ولو قريبه لتاريخ هذه الشعوب الافريقية. ومن بين النماذج التي يمكن ان نقدمها كدليل لهذا الطرح الدراسات الفنية التي ظهرت منذ بداية القرن التاسع عشر في مواقع افريقية على غرار محطات النقوش والرسومات الصخرية في كل من شمال إفريقيا وجنوبها وغربها اذ نجد في كل من هذه المواقع ذلك التقارب في مضامين مواضيعها و في

اشكالها الفنية خاصة عندما نقارن بين مشاهد مواقع الطاسيلي ناجر التي تعود الى مرحله ما قبل البقاريات فإننا نجد فيها بعض سيمات ثقافيه شبيهة الى حد كبير الى وشم و اقتعه الصيد لبعض شعوب القاره السمراء وعلى راسهم رعاه البول الذي انتشر كيانهم عبر صحاري الساحل والسودان وهم كذلك تركوا لنا اثارهم على شكل رسومات توجي الى نفس الانماط المعيشية التي عاشتها تلك الشعوب. لكن ماذا نعني بالمصادر التاريخية؟

ايتيمولوجية المصادر التاريخية:

من المعروف ان نشأة التاريخ كمفهوم علمي توقف على توفر المادة التاريخية التي تصقل المجتمعات وقد طغى هذا المفهوم منذ القرن التاسع عشر والعشرين بأوروبا، فالمجتمعات التي تفتقر الى هذا المعطى هي شعوب لا قيمة لها بل وجودها ما هو الا عبارة عن حادثة تاريخية و قعت في زمن ما، لكنه سرعان ما غير الفكر الأوروبي نظرتة لما ظهر بأوروبا ذلك التيار الذي نادى بوحودية طبيعة الانسان خاصة في النظريات الأنثروبولوجية فالتمسوا ماضي هذه الشعوب من خلال الدراسات الاثنو-التاريخيه او من زاوية انثروبولوجيا التاريخيه و رواد هذه النظرة خاصة في القرن العشرين ،كانوا جمله من الفلاسفة و رجال الدين و المؤرخين وعلى راسهم المؤرخ لإفريقيا ريمون موني في كتابه المعروف "القرون المظلمة لإفريقيا السوداء تاريخ واثار".

فانعدام النص التاريخي لم يصبح معضله بالنسبة للمؤرخ عندما بدا يعتمد على مصادر غير مباشره استنبط منها بعض صور هذا التاريخ الافريقي، على غرار المصادر الكلاسيكية الإغريقية والرومانية التي تطرقت الى شعوب القارة و اشارت إليهم حسب الظروف التاريخية.

مشروع كتابة التاريخ لإفريقيا:

ولهذا دعت منظمه اليونسكو سنه 1965 الى تحقيق مشروع كتابه التاريخ العام لإفريقيا والذي انتهى بإصدار ثمانية مجلدات نشرت بباريس منذ سنه 1986 الى غاية 1998 وقد صادف نهاية الفترات الاستعمارية في القارة بدأيه التفكير في ضرورة الحفاظ على الاسس الاجتماعية والثقافية والدينية لشعوب القارة فانعقد اول مؤتمر دولي من تنظيم جمعيه المؤرخين الافارقة الذي تم بجامعه دكار السنغال من 27 الى 30 ديسمبر 1972 والذي نادى بضرورة كتابه تاريخ افريقيا من خلال توفر جميع اشكال المصادر الشفوية منها او الأثرية و الاعتماد على هذه العلوم المساعدة التي تسمح لنا فهم مسار شعوب هذه القارة زمنيا.

من اعداء الاستاذ حمداو و يوغرطة